

فصلية اللسان المبين (بحوث في الأدب العربي)

محكمة عليها

السنة الثالثة، المسلسل الجديد، العدد الخامس، خريف ١٣٩٠

التناص القرآني في قصة حي بن يقظان لابن طفيل*

الدكتور علي باقر طاهري نيا

أستاذ مشارك في جامعة بوعلی سینا

پرستو قیاسوند

طالبة الماجستير في اللغة العربية و آدابها

الملخص

إن التناص مصطلح حديث يدلّ على تفاعل النصوص معا يعنى أن النصّ يحتوى على نصوص كثيرة شكلت النص الجديد، فالكتابة نتاج لتفاعل عدد كبير من النصوص المخزونة في الذاكرة القرآنية. ما زال القرآن الكريم و مضامينه و قصصه من أهم مصادر في الأدب العربي و استلهم آداباً حديثاً و قديماً من هذا المصدر الملهم الذي يحتوى على اسرار و قابليات كامنتين في دلالات الفاظها و تعابيرها. فإستلهم ابن طفيل من القرآن الكريم كالنص الغائب أثناء قصة حي بن يقظان بحيث يرى تفاعل خاص بينهما. جدير بالذكر إن التناص في هذه القصة يكون من القسم الديني، الخارجي، الظاهري و الخفاء، المباشر و غير المباشر و مسار التناص فيها لغوي و فكري. و هذه المقالة تسعى وراء مناقشة التناص و اقسامه و مساره و معالجته في قصة حي بن يقظان و القرآن الكريم.

الكلمات الدليلية

النقد الأدبي، القرآن الكريم، التناص، قصة حي بن يقظان.

* تاريخ الوصول: ١٣٨٩/١٢/٢٢ تاريخ القبول: ١٣٩٠/٠٥/٢٠

عنوان البريد الإلكتروني: btaheriniya@basu.ac.ir

١- المقدمة

إن كل نص لاحق منبثق من هبولى النصوص السابقة لأن كل نص يتوالد، يتعالق، يتداخل و ينبثق من النصوص فى مجاهيل ذاكرة المبدع التى تمتصّ النصوص بانتظام و بثّها بعملية انتقائية خبيرة. فتشغل هذه النصوص المستحضرة من الذاكرة داخل النصّ لتشكّل وحدات متعالية فى بنية النصّ الكبرى.(الطّغان، ١٩٩٤:٤٤٦) بعبارة أخرى «إن النص لا ينشأ فى فراغ، إنه يتوالد فى مجتمع نصوى، أو هو تفاعل الكلام مع الكلام، و قد كانت الكلمة أولاً فى البدء و من الكلمة الأولى انبثق الكلام و سمات الأبوّة النصّوية، و التقاليد الثقافية، والصوت التاريخى للنص السابق، وعلامات الوجه الخفية تطل جميعها من خلال النص الغائب إذا كان النص الجديد قوى التركيب والنسج، وتطل من خلال النص الظاهر أو البنية السطحية فالنص الجديد مخلخل النسج، و لذلك يصبح النص الحالى آلة تثبت نصوصاً أو أجزاء منها و يمكننا أن نستعين بالنصوص الغائبة فى قراءة النص الجديد و تأويله». (الموسى، ٢٠٠٢: د.ص) على كل «إشارات فى النص دائماً تشير إلى إشارات أخرى جعلها الفنان عن طريق الذاكرة الخاصة التى تكونت لديه من نصوص الآخرين الذين احتكوا بموضوع التجربة مباشرة. فالتناص ذلك التقاطع داخل التعبير مأخوذ من نصوص أخرى. و كل نص على هذا سيكون ذاتا موحدة مستقلة لكنه قائمة على سلسلة العلاقات بالنصوص الأخرى».

(السعدنى، ١٩٩١: ٧٨-٧٧)

بما أن للقرآن الكريم مكانة خاصة لدى الأدباء و العلماء و الإستخدام الفنى لآيات القرآن و مضامينه فى النصوص و تعاملهما من علل جمالها و غنائها و لكون قصة حى بن يقظان من اهم النصوص الثرية الأدبية و العرفانية لدى المسلمين لمضامينها الغنية حول معرفة الله بالعقل و لتعاملها القرآن بالكثير فهذه المقالة تبحث حول التناسق القرآنى فى هذه القصة و أستخدم فيها المنهج التوصيفى التحليلى.

٢- مفهوم التناسق

التناسق من المفاهيم الجديدة التى بدأت تستعمل فى اللغة العربية بمعنى مختلف، عما كان عليه الأمر فى العصور القديمة، ظهوره بدأ يتبلور فى الثقافة العربية منذ عصر النهضة تحت تأثير الاستفادة من النظريات الغربية. التناسق «Intertextualit» يدل على المشاركة بين اثنتين فأكثر و يتفاوت من أقسام السرقات الأدبية كالتضمين، الإقتباس، التلميح و ... كما يؤيد هذا بعض النقاد المعاصرين كخليل موسى و عبد الملك مرتاض مؤكدين التمايز بينها. فهو حوار بين النصوص لأنها تعامل و تحاور معا.

«كانت الانطلاقة الحقيقية لهذا المبحث على يد الناقدة والروائية الفرنسية ذات الأصول البلغارية و المتخصصة في النقد النصي جوليا كريستيفا في عام ١٩٩٦ التي نشرت أبحاثاً لها في مجلتين فرنسيتين. حيث إنها عندما استقرت بفرنسا بعد دراسات حول الصحافة، أخذت موقفاً من المجادلات التي حركت وسط منظري الأدب و اللسانيات، واندمجت في المجموعة المنظمة حول مجلة كما هو و تعاونت مع الرموز السائدة المتجاذلة حول النقد الجديد. إذن فقد تنبته كريستيفا لهذا المصطلح من خلال قراءتها لمنجزات الباحث الروسي باختين التي لم تكن معروفة في الغرب إلا في بداية و قد لعبت دوراً حاسماً في تطور النظرية الأدبية و اللسانية غير أنه رغم هذا لم يستعمل مصطلح «التناس» صراحة وإن كان منجزاته مصدراً مهماً من المصادر التي استلهمت منها كريستيفا نظرتها». (فرطاس، ٢٠٠٧: د.ص) فإنه عند كريستيفا «هو ذلك التداخل داخل تعبير مأخوذ من نصوص أخرى» و على هذا كل نص سيكون ذاتاً موحدة مستقلة لكنه قائم على سلسلة من العلاقات بالنصوص الأخرى. (السعدني، ١٩٩١: ٧٧)

يقضى التناص على مفهوم «أبوة النص» و «سلطة المؤلف» كما يقضى على نظرية الجنس الأدبي النقي، و على نظرية التأثر و التأثير لكنه يقيم وزناً كبيراً للقارئ في عمليتي التفكيك وإعادة الإنتاج. يطرح التناص الحوار و تعدد الأصوات و الوجوه ففيه حوار الحاضر للماضي و محاولة التعبير بالماضي عن الحاضر و هذا يتطلب من الكاتب أن يعي ما يجري حوله من أحداث و ثقافات و أن يكون قادراً على استلهاهم البقع التراثية المناسبة، أن يتصرف بها فنياً و جمالياً و في التناص بنية سطحية هي النص الظاهر أو السطحي و بنية عميقة و هي النص الغائب أو الواجهة الخلفية التي تسند النص المتشكل أو هي الكتابة شبه المحوثة و هي المسكوت عنها غالباً. (الموسى، ٢٠٠٢: د.ص) فلذلك يقوم التناص على جدلية حضور الغياب و الجديد القديم و الحاضر الماضي و يلغى الملكية الخاصة بموت المؤلف و نقاء أجناس أدبية بتداخل النصوص المختلفة. (الموسى، ٢٠٠٠: ١٢٩) أطلق «رولان بارت» مقولة «موت المؤلف» ليحل محله حياة القارئ الذي لا يملك حرية القراءة مع جثوم المؤلف فوق نصه. هي مقولة مرتبطة عامة بالفلسفة الغربية النابذة للماورائيات، و بفكر بارت خاصة و بفكرة ما بعد البنيوية. الهدف منها إبعاد القارئ عن المنظومات المنهجية الخارجية أثناء تأويل النص الأدبي، والرّد على النزعة الرومانسية التي كانت تعلى من سلطة المؤلف (بلحاج، ٢٠٠٠: د.ص؛ الموسى، ٢٠٠٠: ١٢٩)

٣- ابن طفيل

«هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي، انتسب إلى قبيلة قيس و ولد في حوالي غرناطة في أوائل القرن السادس الهجري. انه تعلم الطب في غرناطة ثم وضع في منصب أمين

الأسرار ولاية غرناطة ثم كاتم أسرار لدى حاكم طنجة، حتى وصل أبويعقوب يوسف كطبيب و صديق و وزير لهذا كان الإنسجام تامًا بينه و بين الملك حتى إنه كان يقيم في القصر عنده ليلا و نهارا و قد أدى ابن طفيل عن طريق هذه الصلة حق الزمالة العلمية خير أداء. فكان يجلب العلماء من جميع الأقطار و يحض الملك على إكرامهم و تهيئة الجو المناسب لهم». (محمود، ٢٠٠٠: ١٥-١٣) «يستدل من آراء ابن طفيل الفلسفية أنه كان مهندسا و عالما فلكيا شيد أفكاره في الفلك على أصول هندسية. و مما لا شك فيه أن ابن طفيل كان متعمقا في علم الطبيعة و في المعارف الحياتية على الأخص و يستدل من رسالة حى بن يقظان أنه اطلع على أكثر ما تركه اليونان و العرب من الآثار الفلسفية اطلاق بصير ناقد حول أعماق الحقائق الكامنة وراء المعارف العقلانية و لقد أثبت ابن طفيل قدرته على الموازنة بين الأفكار و المفاضلة بينها باعتبارها من كبار أهل الحق و العلم و الأدب و رغم أن فلسفته كانت تتطرق من المادة فقد كان من أصحاب الدين و التصوف و التقوى. و يتصف أسلوب ابن طفيل بالرفقة و السلاسة و دقة الملاحظة و حسن السبك و التعبير اتخذ كغيره من الفلاسفة الرمز و الإشارة أسلوبا لتجسيد ما يتفاعل في أعماق من آراء و أفكار». (غالب، ١٩٩١: ١٨-١٦)

على كل، تبين هذه القصة علم ابن طفيل و درايته في جميع علوم في زمنه من الحكمة، الهيئة، الطب، الأدب، الشريعة و ... (ملك شاهكوهي، د.ت: ٤)

٤- قصة حى بن يقظان

و اذا كان ابن طفيل طبيبا بحكم وضعه في القصر و فلكيا بشهادة أحد كبار الفلكيين و فيلسوفا إلهيا. فإنه كان أيضا أدبيا و رسالة حى بن يقظان تبرهن على ذلك في وضوح، تأنق في الأسلوب و براعة في التعبير و سلاسة في التركيبات و لقد طوع اللغة لأفكاره فأدى المعنى في دقة تامة بأسلوب بارع. (محمود، ٢٠٠٠: ١٦) «لم يبق لنا من مصنفات ابن طفيل إلا رسالة «حى بن يقظان» أو أسرار الفلسفة الإشراقية و قد ترجم إلى اللغات المختلفة كاللاتينية، الإسبانية، الفرنسية حتى الآن و الأساس الفلسفى لهذه القصة أى الأسطورة الرمزية منهج كان عليه الفلاسفة المسلمين على مذهب الأفلاطونية الحديثة. و قد صور ابن طفيل الإنسان الذى هو رمز العقل في صورة حى بن يقظان و قد هدف ابن طفيل من ورائها إلى بيان الإلتقان بين الدين و الفلسفة و هو موضوع شغل أذهان المفكرين المسلمين كثيرا. هذه القصة عكفت على بحث النشوء الطبيعى و تطور التفكير في الإنسان و بيان كيفية تدرج الإنسان بالتأمل و الفكر في المعرفة من الإحاطة بما حوله من عالم المادة حتى يستطيع أن يتصل من طريق العقل بالله». (غالب، ١٩٩١: ١٦-١٥) فهذه القصة كمرآة تنعكس فيه الإستحالة في روح البشر طوال عمره و كل الأحداث و الشخصيات و الحوار في هذه القصة ليس حقيقية بل

تصدر من خيال الكاتب. إنها مزج للعلم والأدب والفن مملوءة من الرموز والتنبهات؛ تتجلى فيه إحدى من الأصول الهامة الفلسفية أى المعرفة بفن القصة. (طاهرى نيا، ١٣٨٨: ٤)

«قصة حي بن يقظان تدور حول شخص قد نشأ في جزيرة منعزلة عن العالم لا أثر فيها لبشر، فأخذ ينظر ويتأمل و ينسج متدرجا من المحسوس إلى المعقول و من الجزئيات إلى الكلليات حتى وصل إلى تكوين فكرة عن الله و عن الملائ الأعلى ثم أخذ في الرياضة الروحية حتى وصل إلى طور الولاية ثم شاءت الظروف أن يصل إلى الجزيرة عابداً متديناً بدين سماوى اراد العزلة ليتفرغ للعبادة فالتقى به حي بن يقظان و بعد تفاهمهما و أخذ كل منهما عن الآخر التزم حتى ما ذكره له العابد من شعائر دينية و بعد محاولة فاشلة لهداية المدينة التي نشأ فيها العابد، عاد حي إلى الجزيرة و استقر فيها إلى أن أتاه اليقين». (محمود، ٢٠٠٠: ١٩)

«يزعم بعض الفلاسفة بأن الغرض الأصلي لهذه الرسالة شرح غربة البشر و وحدته أو تبين كيفية علاقة بين البشر و المجتمع، و يمكن أن يكون حول كيفية حصول المعرفة و أن الإنسان يستطيع أن يدرك الحقيقة في العزلة و الغربة أيضاً؛ لكن بعضهم يعتقدون بأن القصد منها جمع بين العقل و الدين أى الفلسفة و الشريعة. على كل، هذه القصة يحتوى على المعانى الفلسفية و المسائل الهامة حول الطبيعيات و الشرعيات كما استخدمت فيها الاساليب الادبية و الكتابة الراقية و الخيال القوى أيضاً» (طاهرى نيا، ١٣٨٨: ٢)

«اهتم ابن سينا و السهروردى و ابن طفيل بهذه القصة لكن النبوية في قصة ابن سينا اقل إستحكاماً بالنسبة اليهما و هذه القصة عندهم تكون من معالم اهتمام البشر بمعرفة الله من زمن بعيد». (ملك شاهكوهي، د.ت: ٢)

ابن طفيل أرقى من حيث اللغة و الأدب و جاءت عبارته أنصح و أبلغ في هذه القصة بالنسبة إلى ابن سينا و السهروردى اللذين اهتموا بقصة حي بن يقظان. فهذا النص عمل أدبى انتجته عالم و اديب ذو ثقافة واسعة و ذوق وافر و ملء بالمضامين الأدبية و الفلسفية و الحكيمية يفتح مجالاً واسعاً للقارئ و الباحث كى يفتش الزوايا الكامنة و يكتشف القناع عن البطون المعرفية له و يرى بين هذه القصة و القرآن الكريم عملية التناص بالكثير الذى جعل نصها ثرياً و أرقى جمالاً و فناً.

٥- التناص القرآني في قصة حي بن يقظان

إن التراث الدينى كان مصدراً سخياً من مصادر الإلهام الأدبى لدى معظم الأدباء. و هذا ما يؤكد الدكتور على عشرين زاید فى قوله: «وإذا كان الكتاب المقدس هو المصدر الأساسى الذى استمد منه الأدباء الأوروبيون شخصياتهم و نماذجهم فإن عدداً كبيراً منهم قد تأثر ببعض المصادر الإسلامية، و فى مقدمتها القرآن الكريم، حيث استمدوا من هذه المصادر الإسلامية الكثير من الموضوعات و الشخصيات التى كانت محوراً لأعمال أدبية عظيمة و ليس غريباً أيضاً أن يكون الموروث الدينى

مصدراً أساسياً من المصادر التي عكف عليها شعراؤنا المعاصرون، واستمدوا منها شخصيات تراثية، عبّروا من خلالها عن بعض جوانب من تجاربهم الخاصة». (زايد، ١٩٩٧: ٧٥). فلأدباء يحكّمون اشعارهم ببعض المفاهيم التي وردت في القرآن الكريم؛ واستفاد ابن طفيل من القرآن الكريم في قصة حي بن يقظان. تعالج هذه المقالة النص الحاضر فالنص الغائب ثم دراسة كيفية نوع التناص فيها و جدير بالذكر ان هذه القصة تؤخذ من كتاب قصة حي بن يقظان الذي ضبطه عصام فارس الحرستاني.

٦- اشكال التناص و اقسامه في قصة حي بن يقظان

يعالج ظاهرة التناص من جهات مختلفة؛ هناك من النقاد من قسم التناص من جهات مختلفة.

٦-١- يقسم التناص حسب توظيفه في النصوص إلى النوعين الخفاء والظاهر:

٦-١-١- التناص الخفاء (التناص اللاشعوري) الذي فيه يكون مؤلف غير واع بحضور النص أو النصوص الأخرى في نصه الذي يكتبه و يقوم هذا التناص في استراتيجيته على الإمتصاص و التوذيذ و التحويل النصي. (رستم پور، ١٣٨٤: ١٨)

و يرى التناص الخفاء في قصة حي بن يقظان هكذا «فإن وجود العالم كله إنما هو من جهة استعداده لتحريك هذا المحرك البريء عن المادة و عن صفات الأجسام المنزه عن أن يدركه حس أو يتطرق إليه خيال...» (ابن طفيل: ٦١) تتعامل الآية الشريفة «لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار و هو اللطيف الخبير» (أنعام/ ١٠٣) الألفاظ المستعملة في القصة تأثرت من الألفاظ القرآنية ك «يدركه» دون شعر الكاتب و أيضا معنى هذه الجملة القصصية حول واجب الوجود و خبرته و لطافته كما نرى و تبادر إلى البال الآية القرآنية خفية على سبيل مثال «البريء عن المادة و عن صفات الأجسام المنزه عن أن يدركه الحس و يتطرق إليه خيال» يتعامل «لا تدركه الأبصار» و «و هو اللطيف» كأن الألفاظ القرآنية ذابت في القصة دون وعي الكاتب فتناص فيها من القسم الخفاء.

٦-١-٢- القسم الثاني من التناص حسب توظيفه في النص هو التناص الظاهر الذي يدخل ضمنه و يسمى الإقتباس الواعي أو الشعوري لدن المؤلف يكون واعيا به. (رستم پور، ١٣٨٤: ١٨) التناص الظاهري في قصة حي بن يقظان أكثر بالنسبة إلى التناص الخفاء؛ على سبيل مثال العبارة «و تحقق له أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون فالتزم خدمته و الإقتداء به...». (ابن طفيل: ٩٧) تبادر ظاهرا إلى البال الآيات الشريفة «قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون» (بقره/ ٣٨) ، و «إن الذين آمنوا و عملوا الصلح و أقاموا الصلاة و آتوا لهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون» (بقره/ ٢٧٧) و أيضا «يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى و أصلح فلا خوف عليهم و لا هم

يحزنون» (اعراف / ٣٥). العبارات للنص الحاضر يعني «الذين لا خوف عليهم» و «ولا هم يحزنون» علامة تأثير الكاتب من آيات القرآن الكريم لفظا كما يرى في سورة بقره و اعراف دون أى غموض و خفية. مضمون القصة يدل على اقتداء ايسال بحى بن يقظان الذى كان فى رأيه من أولياء الله الذين لاخوف عليهم و لاهم يحزنون و يجب إتباعه و أن يحذو حذوه فمعنى الآيات الكريمة أيضا يدل على اتباع الهدى و عدم حزن و خوف على الذين يتبعون الهدى. فإستخدام بعض الكلمات فى القصة ك «إلتزام الخدمة و الإقتداء به» فى معنى الالفاظ القرآنية ك «اتباع هداى، إتقاء، إقامة الصلاة و إصلاح و...» تدل على تأثير الكاتب من القرآن الكريم معنى بالوضوح و وعيه باستخدامه.

أيضا النص الحاضر «قد اتخذوا إلههم هواهم و معبودهم شهواتهم». (ابن طفيل، ١٠٠) تدل على تعامله النص الغائب «أرأيت من إتخذ إلهه هواه أفانت عليه وكيفا». (فرقان/ ٤٣) ظاهرا و دون غموض. عبارة «قد اتخذوا إلههم هواهم» تعامل «أرأيت من إتخذ إلهه» و التناص الظاهر بينهما لفظا و أيضا بين تلك العبارة القرآنية و فى عبارة قصصية «معبودهم شهواتهم» التناص الظاهر معنى، فالمعنى فى الحاضر يبادر إلى الذهن الغائب الذى يكون حول إتخاذ البشر هواه إلهها و كفره لتلائم معنى للنصين دون خفية. هذا علامة وعى الكاتب و شعوره بهذا تعامل و هكذا زاد القصة غناء و جمالا.

٢-٦- يقسم التناص حسب كيفية استخدام النص الغائب إلى قسمين:

الف- التناص المباشر: يقصد بالتناص المباشر سواء كان النص تاريخيا أم دينيا أم أدبيا اقتباس النص بلغته التى ورد فيها مثل الآيات و الأحاديث و الأشعار و القصص.

ب- التناص غير المباشر هو ما يدعوه بتناس الأفكار أو المقروء الثقافى أو الذاكرة التاريخية التى تستحضر تناساتها بروحها أو بمعناها. (الزغبى، ٢٠٠٠: ٢٠) و يوجد كلاهما فى قصة حي بن يقظان على سبيل مثال:

النص الحاضر: «و كان الذى أوقعه فى ذلك ظنه أن الناس كلهم ذوو فطر فائقة و أذهان ثاقبة و نفوس عازمة و لم يكن يدرى ما هم عليه من البلادة و النقص و سوء الرأى و ضعف العزم و أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا». (ابن طفيل: ٩٨)

النص الغائب: «و لقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجنّ و الإنس لهم قلوب لا يفقهون بها و لهم أعين لا يبصرون بها و لهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغفلون» أعراف / ١٧٩ المعنى و اللفظ للقصة تدل على تعاملهما الآية الشريفة، كما يرى الفاظ النص الغائب فى النص الحاضر فى عبارة «أنهم كالأنعام بل هم أضلّ» فالتناس فيها مباشر لاقتباس النص الغائب بلغته التى ورد فيها، و حضور تراكيب كسوء الرأى، لم يكن يدرى، النقص و ... فى النص الحاضر تدل على

التناص غير المباشر لأنها تدلّ على معنى و فكر و روح تراكيب النص الغائب ك«لا يفقهون، لا يبصرون، لا يسمعون» لأنها تدلّ على جهل و ضلال و رد الحق.

٣-٦-٣- التناص ينقسم حسب مصدر الإيحاء و الإستلهام إلى قسمين:

٣-٦-١- التناص التلقائي: يستخدم التناص في هذا القسم كعادة كأنه أمر طبيعي لا يدّ منه و كأنه من الرسوم الشعاعية؛ كإهتمام شعراء الجاهلية حول تلميح بوقوف على أطلال و رسوم الحبيبة التي يحسب أمر طبيعي ينتظره المخاطب في بدء القصيدة.

٣-٦-٢- التناص الداخلي: يستفيد الأديب في النص الحاضر من منتجاته الأخرى يعنى النص الغائب أيضا من مکتوباته أيضا. كما يرى هذا التناص في «انشودة المطر» و «غريب على الخليج» من بدر شاكر السياب.

٣-٦-٣- التناص الخارجي: هذا القسم من التناص أكثر إستعمالا بالنسبة إلى الأقسام الأخرى و يستخدم الأديب في النص الحاضر من نصوص الأدباء الآخرين و من نصوص ليس من منتجاته. (واحدى، ١٣٨٥: ٣٩-٣٨)

٣-٦-٣-١- التناص القرآنى فى قصة حى بن يقظان حسب مصدر الإيحاء و الإستلهام يكون من القسم الخارجى كله، على سبيل مثال:

النص الحاضر: «... و ظلمات الحجب قد نغشّهم و الكل منهم إلا اليسير لا يتمسكون من ملتهم إلا بالدنيا و قد نبذوا أعمالهم على خفتها و سهولتها وراء ظهورهم و اشتروا بها ثمنا قليلا». (ابن طفيل، ١٠٠)

النص الغائب: «و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون». آل عمران / ١٨٧

اراد ابن طفيل فى النص الحاضر وصف قوم سلامان و عدم اطاعتهم الله و تأثر من القرآن الكريم فاستخدمه و جعله ثريا لأن وصف القوم هكذا ابلغ للمخاطب من عبارات البشرية. فالعبارتين «قد نبذوا أعمالهم على خفتها و سهولتها وراء ظهورهم» و «اشتروا بها ثمنا قليلا» تبادلوا لفظا إلى البال آية ١٨٧ من سورة مباركة آل عمران و أيضا كالتنصين تدل معنى على الضرر فى اعمال الذين لا يعرفون الله حق عرفانه و لا يطيعون الاوامر الإلهية. التناص هنا من القسم الخارجى لأن الكاتب استخدم الآيات و المضامين القرآنية التى تكون من كلام الله تعالى و مصدر إيحاء لابن طفيل ليس بداخلى و تلقائى لعدم كونه من نتاجه الأخرى و من رسوم الكتاب الآخرين كعادة.

٣-٦-٤- يقسم التناص حسب نوع النص الغائب أيضا إلى أقسام مختلفة:

الف- التناص الأدبي: تداخل النص الأدبي النصوص الأخرى يسمى التناص الأدبي الذى يستخدم لتبيين قصد الأديب.

ب- التناص الاسطوري: الأديب يستفيد فى النص الحاضر من بعض الأساطير القديمة.

ج- التناص التاريخي: يستفيد الأديب من بعض النصوص التاريخية ملائمة النص الحاضر.

٤-٤-١- توجد للتناص أقسام أخرى حسب نوع النص الغائب كالدينى و الفلسفى و ... حسب نوع النص الغائب و التناص فى قصة حى بن يقظان يكون من القسم الدينى لأن النص الغائب هو القرآن الكريم و له مكانة خاصة لدى الكاتب المسلم لأنه نص فوق الأجناس النصوية و فوق مقاربتها استلهم ابن طفيل من مضامينه العالية و موضوعاته كنص دينى على سبيل مثال:

النص الحاضر يعنى «لا تنجع فيهم الموعظة و لا تعمل فيهم الكلمة الحسنة و لا يزدادون بالجدل إلا إصرارا و أما الحكمة فلا سبيل لهم إليها و لا حظ لهم منها قد غمرتهم الجهالة و ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» (ابن طفيل: ١٠٠) تبادر إلى البال النص الغائب يعنى «إذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» مطفيين / ١٤-١٣. يرى التعامل الحاضر الغائب لفظاً فى عبارة «ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون».

بعض العبارات القصصية كـ«لا تنجع فيهم الموعظة، لا تعمل فيهم الكلمة الحسنة، الحكمة فلا سبيل لهم إليها و ...» يدل معنى على بعض التراكيب القرآنية كـ«إذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين» يعنى عدم قبول الحق و مجادله فيه و هذا المعنى و النص الغائب فى الحقيقة دينى. فالتناص فى قصة حى بن يقظان من القسم الدينى و أصبح توظيف التراث الدينى فى الأثر تعزيزاً قوياً لأدب و عاملاً لاستمراره فى ذاكرة المخاطب و حافظته.

٥-٤-٥- للتناص مسارات أهمها اللغوى، الفكرى، البنىوى و الطباعى:

الف- المسار اللغوى: يكون فى المفردات و التراكيب و الوزن و القافية و الأسلوب و العناوين الفرعية.

ب- المسار الفكرى: يكون فى الأفكار و المعانى و ما يتصل بها.

ج- المسار البنىوى: يكون فى العناصر البنىوية التى يبيها النص السابق فى النص الجديد (استلهم التراث القومى و الإنسانى، كما يكون فى اتجاه العمل الأدبى و جنسه (قصيدة غنائية، قصيدة موضوعية...).

د- المسار الطباعى: يكون فى الحجم، الخط، الرسومات، الألوان، لتشكيلات المرئية. (الموسى،

٢٠٠٢، د.ص)

٥-٤-١- مسار التناص فى قصة حى بن يقظان لفظى و فكرى أى استخدم ابن طفيل المفهوم و المنطوق للقرآن الكريم فيها هكذا:

٦-٥-١-١- النص الحاضر: «ثم إنها حملت منه و وضعت طفلا فلما خافت أن يفتضح أمرها و ينكشف سرها وضعت في تابوتا حكمت زمه بعد أن أروتها من الرضاع و خرجت به في الليل في جملة من خدمها و ثقاتها إلى ساحل البحر و قلبها يحترق صباة به و خوفا عليه ثم إنه ودعته و قالت : اللهم إنك خلقت هذا الطفل و لم يكن شيئا مذكورا ... فكن له و لا تسلمه يا أرحم الراحمين، ثم قذفت به في اليم». (ابن طفيل: ٢٢)

النص الغائب الأول: «و أوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه فإذا خفت عليه فالقيه في اليم و لاتخافي و لاتحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين». قصص / ٧-٨

النص الغائب الثاني: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» الإنسان / ١
عملية التناص: استلهم ابن طفيل من قصة موسى (ع) في القرآن الكريم في قضية ولادة حى هكذا. أمه جعلته في تابوت و قذفته في اليم حتى تنجاه من السطان الجبار كما جعلت ام موسى طفلها رغم ضيق صدرها في اليم لنجاته من فرعون و جنوده، فقد يرى تأثير المعنى و الفكر القرآني فيه فمسار التناص فيه فكرى و أيضا كلمات ك «التابوت، خافت عليه، الرضاع، اليم و...» تبادر قضية موسى إلى الذهن فمسار التناص لغوى أيضا؛ لكن كان خوف الأم في القصة من كشف افتضحها و على ولدها أيضا لكن خوف أم موسى في القرآن الكريم كان لولدها فقط. تعامل القصة و القرآن الكريم حول. ولادة حى زادها جمالا و خيالا و يعطيها من خصائص القصص القرآنية على سبيل مثال الخيال. في القصة الذى يذهب بالمخاطب إلى زمن ولادته حتى يرى أمه و يحس حزنها و ضيق صدرها كما كان في قصة موسى(ع).

تأثر ابن طفيل في تلك النص الحاضر من آية ١ لسوره الإنسان المباركة لفظا و العبارة «لم يكن شيئا مذكورا ...» تدل على مسار التناص الغوى؛ و إنه فكرى أيضا لدلالة القصة على خلق إنسان و عدم كونه شيئا مذكورا؛ على كل المفهوم و المنطوق في القصة تدل على الآيات المذكورة.

٦-٥-١-٢- النص الحاضر: «و في خلال ذلك تنن ذلك الجسد و قامت منه روائح كريهة. فزادت نفرتة عنه و ود أن لا يراه ثم إنه سنع لنظره غربان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتا. ثم جعل الحى يبيحث في الأرض، حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب فقال في نفسه: ما أحسن ما صنع هذا الغراب في مواراة جيفة صاحبه و إن كان قد أساء في قتله إياه! و أنا كنت أحق بالإهداء إلى هذا الفعل بأمى؛ و ألقى فيها جسد أمه و حثا عليها التراب». (ابن طفيل: ٣٥)

النص الغائب: «فتوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. فبعث الله غرابا يبيحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوء أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين». (بقرة / ٣١-٣٠)

عملية التناص: كلا النصين يدل على كشف الإنسان منهجا لدفن الميت أول مرة و اتباعه من الغراب. فاستلهم الكاتب هنا أيضا من قضية دفن هابيل بواسطة قابيل الذي قتله ثم رأى غرابا دفن غرابا آخر و ففي القصة حي بن يقظان دفن أمه التي ماتت و فاهت من جيفتها روائح كريهة هكذا؛ فيبادر إلى بال هذا القسم من القصة الآية الشريفة فمسار التناص فكري. و أيضا اللغات في هذا القسم استلهمت من القرآن الكريم كـ«الغراب و يورئ» و تدل على مسار التناص اللغوي ولكن في مقارنة بين التعابير في النصين، يرى إستخدام الجيفة إزاء سوء ملائما بالنصين.

٥-١-٣- النص الحاضر: «قالوا: فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى و سجدت و سخرت بأمر الله تعالى في كمالها...» (ابن طفيل: ٢٥)

النص الغائب الأول: «و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس أبى و إستكبر و كان من الكافرين».(بقره/ ٣٤)

النص الغائب الثاني: «الله الذي خلق السماوات و الأرض و انزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم و سخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره و سخر لكم الأنهار . و سخر لكم الشمس و القمر دائبين و سخر لكم الليل و النهار» (ابراهيم/ ٣٣-٣٢)

النص الغائب الثالث: «الم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض و الفلك تجرى في البحر بأمره و يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم» (حج/ ٦٥)

النص الغائب الرابع: «الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون» (الجاثية/ ١٢)

عملية التناص: أشار ابن طفيل في قصة حي بن يقظان بقضية أمر الله تعالى بسجود الملائكة لآدم (ع) لكامله و اشرفيته في قصة آدم (ع) في القرآن الكريم بسجود جميع القوى بين يدي حي؛ المسار للتناص في هذا القسم من القصة فكري و لكن استكبر و أبى إبليس من سجود لآدم (ع) في القصة القرآنية و ما أبى شيء في قصة حي بن يقظان منه. إستعمال الكلمة «سجدت» يدل على التناص اللغوي أيضا.

اشار ابن طفيل في هذا النص الحاضر إلى تسخير الله جميع القوى لحي بن يقظان كانسان و استفاد من النصوص الغائبة كما يرى في سوره ابراهيم، الحج، الجاثية التي تدل على تسخير جميع القوى كالشمس و القمر و البحر و ما في الأرض و ... للإنسان فمسار التناص فيها فكري و لفظي أيضا لاستخدام الفاظ كـ«سخر، أمر الله» في القصة. فإشارة إلى خلق الآدم و سجود جميع القوى له و تسخير كل شيء للإنسان بأمر الله زاد غناء القصة الفكرية حول علو شخصية البطل في القصة.

النتيجة

إن التراث الديني عامة و القرآن الكريم خاصة كان مصدراً سخياً من مصادر الإلهام الأدبي لدى معظم الأدباء كما يرى في قصة حي بن يقظان لابن طفيل التي تكون نصاً حياً يحتوي على المعاني الفلسفية و المسائل الهامة حول الطبيعيات و الشرعيات كما استخدمت فيها الاساليب الادبية و الكتابة الراقية و الخيال القوى أيضاً. إنها كمرآة تتعكس فيه الإستحالة لروح البشر طوال عمره و تأثر كاتبه من القرآن الكريم في تبين ما قصده بالكثير فهناك بينها و بين القرآن الكريم تعامل قوى. التناص في هذه القصة أى النص الحاضر و النص الغائب أى القرآن الكريم يكون من القسم ١- الديني حسب نوع النص الغائب الذي يكون القرآن الكريم الذي يكون اعظم النصوص الدينية، ٢- الظاهري لكون المؤلف واعياً بحضور القرآن الكريم في أثره و أيضاً الخفاء لعدم شعور الكاتب به أحياناً، ٣- المباشر لإستخدام نص القرآن بلغته التي ورد فيها و غير المباشر لحضور معنى و فكر للنص الغائب في الحاضر، ٤- الخارجي لتعامل قصة بشرية حي بن يقظان و نص كلام الله الذي ليس من نتاج الكاتب أو من رسوم الكتاب الآخرين كعادة. جدير بالذكر إن مسار التناص في قصة حي بن يقظان فكرى و لغوى لحضور مضامين القرآن الكريم العالية في افكار و روح القصة و مفردات و تراكيبه في نصها.

المصادر و المراجع

الف - الكتب:

- ١- القرآن الكريم.
 - ٢- زايد، على عشرى. (١٩٩٧). «استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر»، بيروت: دار الفكر العربي، لا.ط.
 - ٣- الزغبى، احمد. (٢٠٠٠). «التناص نظرياً و تطبيقاً، الأردن»، مؤسسة عمّون للنشر و التوزيع، الطبعة ٢.
 - ٤- الطعان، صبحى. (١٩٩٤). «بنية النص الكبرى»، المطبعة عالم الفكر، لا.ط.
 - ٥- علوش، سعيد. (١٩٨٥). «معجم المصطلحات الأسلوبية المعاصرة»، لا.ط.
 - ٦- غالب، مصطفى. (١٩٩١). «ابن طفيل»، بيروت: دار مكتبة الهلال، لا.ط.
 - ٧- فارس الحرسثاني، عصام. (١٤١٦). «قصة حي بن يقظان ابن طفيل»، اردن، دار العمار، الطبعة الأولى.
 - ٨- محمود، عبد الحليم. (٢٠٠٠). «فلسفة ابن طفيل و قصة حي بن يقظان»، مصر: دار الغريب للطباعة و النشر و التوزيع، لا.ط.
- ب - المجالات:

- ٩- رستم پور ملكى، رقيه. (١٣٨٤). «التنصاف القرآني في شعر محمود درويش». مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية و آدابها فصلية محكمة، تهران، العدد ٣، صص ٣٤-١٥.
- ١٠- طاهري نيا، علي باقر؛ پرستو قياسوند. (١٣٨٨). «بررسی آمیزش ادب، علم و هنر در داستان حي بن يقظان ابن طفيل»، من المقالات للمهرجان الدولي للحكمة السنوية، همدان.
- ١١- فرطاس، نعيمة. (٢٠٠٧). «نظرية التناصية والنقد الجديد (جوليا كريستيفا أنموذجاً)»، مجلة الموقف الأدبي من اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٤٣٤.
- ١٢- ملك شاهكوهي، رضا. (د.ت). «مقایسه اجمالی داستان حي بن يقظان از ابن طفيل و ابن سينا و شيخ اشراق»، من المقالات للمهرجان الدولي ابن سينا.
- ١٣- الموسى، خليل. (٢٠٠٢). «التنصاف، جريدة الاسبوع الأدبي»، العدد ٧٩٠. الأطلوحة:
- ١٤ - واحدى، ماشالله. (١٣٨٥)، «بررسی تناص قصائد احمد مطر با قرآن كريم»، أطلوحة لمرحلة الماجيستر بجامعة بوعلی سینا، همدان.
- ج- المصادر الإلكترونية:
- ١٥- بلجاج، احمد. (٢٠٠٧). «حضور النص القرآني في الشعر أهو تناص أم اقتباس؟»
- ١٦- السعدني، مصطفى. (١٩٩١). «التنصاف الشعري»، مركز الدلتا للطباعة- www.al-mostafa.com
- ١٧- الموسى، خليل. (٢٠٠٠). «قراءات في الشعر العربي المعاصر و الحديث»، من منشورات إتحاد الكتاب العربي www.awu-dam.com.

فصلنامه‌ی لسان مبین (پژوهش ادب عربی)

(علمی - پژوهشی)

سال سوم، دوره‌ی جدید، شماره‌ی پنجم، پاییز ۱۳۹۰

بینامتنی قرآنی در داستان حی بن یقظان «ابن طفیل»*

دکتر علی باقر طاهری نیا

دانشیار دانشگاه علی سینای همدان

پرستو قیاسوند

دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی

چکیده

بینامتنی اصطلاح جدیدی است که بر سازگاری و همگانی متون با یکدیگر دلالت دارد. به عبارت دیگر بینامتنی یعنی اینکه متن، حاوی متون فراوانی است که خود اینک متن جدیدی را تشکیل داده است. یک نوشتار، محصول همکاری تعداد فراوانی از متون انباشته در حافظه‌ی خوانشی است. قرآن کریم، مضامین و داستان‌های آن از مهمترین سرچشمه‌های ادب عربی می‌باشد. ادبای گذشته و حال از این منبع الهام گرفته‌اند. ابن طفیل نیز از قرآن به عنوان یک «متن غایب» در ضمن داستان «حی بن یقظان» الهام پذیرفته است. این نوشتار به بحث درباره‌ی این داستان و جنبه‌های بینامتنی آن و الهام از قرآن کریم می‌پردازد. پدیده‌ی بینامتنی در این داستان از نوع دینی، خارجی، ظاهری و ناپیدایی مستقیم و غیر مستقیم است و سیر حرکت بینامتنی به شکل لغوی و فکری را نشان می‌دهد.

واژگان کلیدی

نقد ادبی، قرآن کریم، تناس، قصه حی بن یقظان.

* - تاریخ دریافت مقاله: ۱۳۸۹/۱۲/۲۲ تاریخ پذیرش نهائی: ۱۳۹۰/۰۵/۲۰

نشانی پست الکترونیکی نویسنده: btaheriniya@basu.ac.ir